بسم الله الرحمن الرحيم

رياض الصالحين

شرح حديث أَنَس –رضي الله عنه– قالَ "إِنَّكُمْ لَتَعْمَلُونَ أَعْمَالاً هِيَ أَدقُّ في أَعْيُنِكُمْ مِنَ الشَّعرِ.."

الشيخ: خالد بن عثمان السبت

الحمد لله، والصلاة والسلام على رسول الله، أما بعد:

فهذا هو الحديث الرابع في باب المراقبة، وهو حديث أنس –رضي الله تعالى عنه– قال: "إنكم لتعملون أعمالاً هي أدق في أعينكم من الشعر، كنا نعدها على عهد رسول الله –صلى الله عليه وسلم– من الموبقات"[1]، رواه البخاري.

والموبقات هي: المهلكات، والمراد بهذا الحديث هو أن أنس بن مالك –رضي الله عنه– وهو من صغار الصحابة وتأخرت وفاته، أنه شاهد تغيراً كثيراً عما عهده في زمن رسول الله –صلى الله عليه وسلم–، وذلك أنه أخبر عن حال من رآهم من التابعين، وأنهم يعملون أعمالاً لا يبالون فيها، فهي في أعينهم أدق من الشعر، بمعنى أنها ليست ذات شأن، ولا يتهيبون عند عملها والقيام بها، وكانوا يعدونها على عهد رسول الله –صلى الله عليه وسلم– من الموبقات، يعني: من المهلكات، وإنما يكون ذلك مع تقارب المدة بين زمن النبي –صلى الله عليه وسلم–، وبين الوقت الذي قال فيه أنس –رضي الله تعالى عنه– ما قال بسبب ما يوجد بين الناس من الفارق الكبير في الإيمان.

وقد قال النبي –صلى الله عليه وسلم–: ((إن المؤمن يرى ذنوبه كأنه قاعد تحت جبل يخاف أن يقع عليه، وإن الفاجر يرى ذنوبه كذباب مر على أنفه فقال به هكذا))[2]، فالمؤمن يتحرز، ويخاف من الله –عز وجل–، وكلما تعاظم الإيمان في قلب العبد كلما ازدادت خشيته وتخوفه مما قارفه من الأعمال، وكلما ترحل الإيمان وضعف في قلب الإنسان كلما قلت مبالاته، فلم يعد يلتفت إلى شيء، حتى إنه يصير إلى حال يستوي عنده فيها الإحسان والإساءة، فلا يرعوي، ولم يعد له قلب يتحرك، ولم يبق له نفس لوامة تلومه على فعل الذنب، وذلك أن النفوس كما أخبر الله –عز وجل– ثلاث: نفس مطمئنة، اطمأنت بطاعة الله –عز وجل–، ونفس لوامة، بقي فيها حياة، فهي تلوم صاحبها على مقارفة ما لا يليق، وعلى التقصير في حق الله –عز وجل–، ونفس أمارة بالسوء، فهي تكثر من أمره بالسوء، وتحرضه على فعل المنكر وتدفعه إليه، فإذا وصل الإنسان إلى مثل هذه الحال كثرت ذنوبه، فكانت هذه الكثرة داعية إلى قلة مبالاته من وجهين:

الوجه الأول: هو أن هذه الذنوب تغلق قلبه، فلم يعد للقلب تلك الحيوية والشفافية التي يتأثر بسببها إذا قارف المنكر، أو إذا رأى المنكر، {كَلَّا بَلْ رَانَ عَلَى قُلُوبِهِم مَّا كَانُوا يَكْسِبُونَ} [المطففين: ١٤]، فالكفار الذين

---

[1] – أخرجه البخاري، كتاب الرقاق، باب ما يتقى من محقرات الذنوب (٥/٢٣٨١)، رقم: (٦١٢٧).

[2] – أخرجه البخاري، كتاب الدعوات، باب التوبة (٥/٢٣٢٤)، رقم: (٥٩٤٩).

نشاهدهم مثلاً إذا الواحد منهم كذب، أو ظلم، أو فعل الفجور والفساد، هل يؤنبه ضميره ويشعر بالذنب ويستغفر الله ويتوب؟

أبداً، هم حياتهم من أولها إلى آخرها كفر وفجور، وبعد عن الله -عز وجل- بكل ما تحمله هذه الكلمات من معانٍ.

وهكذا من غلب عليه الفجور فإنه لم يعد يبالي، بل لربما أبغض من نصحه ونفر منه، ويرى أن ناصحه عدو له، وأما إذا كان الإنسان لا زالت تلك الحياة تتحرك في قلبه فإنه يبدأ في نفسه ولو في أحوال قليلة، تبدأ تلك الحركة وتأنيب الضمير، واللوم الذي تلومه نفسه على تلك المنكرات، فإذا قوي الإيمان خاف الإنسان، فإذا فعل المنكر لم ينم تلك الليلة، ولربما بكى، ولقد رأينا أناساً لم يقارفوا ما يوجب الحد وهم يبكون، وتأثروا غاية التأثر ببعض ما قارفوا، ويطالبون بإقامة الحد عليهم، مع أنهم ما فعلوا شيئاً يوجبه، لكن لشدة خوفهم من الله -عز وجل- غلب ذلك عليهم.

ولذلك تجد أن من الناس كما يذكر الأطباء -وهو أمر مشاهد ولو لم يذكروه- مَن يصابون بأمراض من الوسوسة في الطهارة، أحياناً يكون السبب في هذا هو أنه قارف فاحشة، فانعكس ذلك عليه بلون أو بآخر، منهم من لا يستطيع إذا تزوج أن يعاشر أهله، والسبب أنه كلما تذكر الذنب برد لشدة خوفه من الله -عز وجل-، ولا شك أن هذه أمور تتأثر كثيراً بما يعتلج في الضمير، فالإنسان لا يستطيع أن يعمل كل ما يريد، لابد من تهيُّئه.

ومنهم من يشعر بالذنب ولا يعرف طريق الخروج منه، فيغلب عليه الخوف فينعكس ذلك عليه بوسواس، ويرى أنه لو اغتسل بمياه البحار لم تطهره، ولذلك تجد أن بعضهم يسأل، ثم يسأل، ثم بعد دقيقة يعيد السؤال، ثم يتصل بعد دقيقة، وما هي أسئلته؟ أنه قارف قبل سنين فهل تطهرت ثيابه بعد أن غسلها، ثم يسأل بعد دقيقتين هل الاغتسال الذي اغتسله أجزأه؟، ثم يعيد السؤال مرة ثالثة هل الغسل الذي يغتسله من غير نية بعد ذلك هل له أثّر في التطهير؟، ثم يسأل بعد ذلك سؤالاً آخر هل غسيل الملابس بالبخار يطهر ذلك منها، ثم يسأل بعد ذلك: الملابس التي قارفت بدنه هل يكفي غسل البدن بغير نية تلك الأشياء التي أصابت؟، وأسئلة وراء بعضها، يسأل ربما ثمانية أو تسعة أسئلة ولا يتوقف إلا إذا قلت: لا تتصل، أو لا تسأل عن هذه المسألة، إن كان عندك سؤال آخر وإلا فلا تسأل.

فالمقصود أن مثل هؤلاء لا زال عندهم إيمان، وعندهم خوف من الله -عز وجل-، وقعوا في بعض ما لا يليق، فانعكس ذلك عليهم بمثل هذه الظواهر والأمور التي تعتلج في نفوسهم.

وإذا اشتد خوف الإنسان من الله -عز وجل- فإنه لربما بكى كما يبكي الصبي، كما كان حال كثير من السلف -رضي الله تعالى عنهم-، لربما فاته ورده من الليل فجعل يبكي كما يبكي الصبي.

وهذا حذيفة بن اليمان -رضي الله عنه- خرج إلى المسجد، وقد انحبس لأمر أو لآخر، فوجد الناس قد خرجوا فتوارى واختفى، فسئل عن هذا فقال: لا أستطيع أن ألقى الناس، يعني: بأي وجه ألقاهم وقد خرجوا من المسجد؟.

بينما الآخر الذي اعتاد على فوات الصلوات وتفويتها، وتضييعها يأتي ويستقبل الناس، ولم يتأثر بذلك إطلاقاً.

والذي اعتاد على فعل الطاعات وترك المعاصي إذا فاتته صلاة الجماعة يوماً من دهره تأثر غاية التأثر، ولو أنه لم يصلِّ الفجر ذلك اليوم في المسجد -مع أنه صلى في الوقت- لا يستطيع أن يلقى الناس، أو يراهم، ويشعر بحزن، وأن ذلك اليوم لا بركة فيه، وأنه لا يستطيع أن يحقق فيه مطلوباً أو ينجزه.

والذي لا يصلي صلاة الفجر إلا بعد طلوع الشمس كل يوم، والذي لا يصلي أصلاً هذا كيف يعيش وليس عنده قلب يتحرك وضمير؟، الإنسان يتآكل إذا كان في سفر وكادت الشمس أن تغرب، أو اصفرت الشمس، وهو لم يصلِّ العصر، فالذي لا يصلي أبداً كيف يعيش؟ كيف تكون حاله؟ وأين خوف الله -عز وجل- في قلبه؟.

فأقول: هذا الأثر عن أنس -رضي الله عنه- يصور حال التابعين، يعملون أعمالاً في أعينهم أدق من الشعر، في عهد النبي -صلى الله عليه وسلم- كانت من الموبقات، وهذا التفاوت بكثرة الذنوب، وهذه الكثرة تؤثر راناً على القلب، وإذا كثرت فإن الإنسان يألفها حينما تكاثرت عليه، وإذا كان هذا في عهد التابعين فكيف تكون حالنا مع ذنوبنا؟، لو وجد أنس -رضي الله عنه- الآن ماذا سيقول؟

إذا كان جماعة من الصحابة قالوا للتابعين: لو بعث فيكم رسول الله -صلى الله عليه وسلم- لما عرف فيكم إلا أنكم تقيمون الصفوف فقط.

يعني: كل شيء تغير، هذا في زمن التابعين، فكيف لو رأوا هذا الزمن؟!، أولائك الذين يدخلون في معاملات مشبوهة أو محرمة، معاملات مالية، يتهافتون على أسهم محرمة، هي في أعينهم أدق من الشعر، بالنسبة لأصحاب رسول الله -صلى الله عليه وسلم- يعتبرونها من الموبقات.

فأقول: ينبغي أن لا تكون كثرةُ من يفعل المنكر من حولنا أو كثرة ذنوبنا التي نعافسها صباح مساء مُنسيةً لنا ما وراءنا من الحساب والعقاب، وما ينتظرنا من النار وعذاب الله -عز وجل-، فإذا كثرت ذنوب العبد ينبغي أن يتوب، وإذا رأى الناس من حوله يكثرون مقارفة ما لا يليق فلا ينبغي أن يتابعهم ويقول: كل الناس يفعلون كذا، لا يكون أحدكم إمّعة إن أحسن الناس قال: أحسنت، وإن أساءوا أساء معهم، شاركهم في هذه الإساءة، وإنما يتميز، ولا يستوحش من قلة السالكين، ولا يغتر بكثرة الهالكين، والله -عز وجل- قال: **{وَإِن تُطِعْ أَكْثَرَ مَن فِي الأَرْضِ يُضِلُّوكَ عَن سَبِيلِ اللّهِ}** [الأنعام: ١١٦]، فينبغي للإنسان أن يحفظ دينه، ويحفظ قلبه، ويحفظ حدود الله -عز وجل-، ولا تحمله إساءة من أساء على أن يتابعهم في هذه الإساءة.

هذا، وأسأل الله -عز وجل- أن ينفعنا وإياكم بما سمعنا، وأن يجعلنا وإياكم هداة مهتدين وصلى الله على نبينا محمد، وعلى آله وصحبه.